الفصل الخامس عشر

تحسين العلاقات

بعد أن طردت من المدرسة الإسلامية اتصلت بوالديّ، فمنذ أن تركت منزل أخي، ورجعت أمي إلى الأردن لتعيش مع والدي، كنت أتصل بهما بشكل منتظم، لكن مضت مدة عام كامل تقريبًا رفض أبي خلالها التحدث إلي، وكما علمت لاحقًا، كان أبي يعتقد أنني تركت منزل أخي بمحض إرادتي، وأمي لم تصحح معلوماته خوفًا من أن تغضب أخي، ورفض إخواني وأخواتي التحدث معي أيضًا. لذلك تحدثت فقط مع أمي بعض الوقت دون أن أخبرها بأنني فقدت عملًا آخر.

وبعد أن أقفلت سماعة الهاتف اتصلت بأطفالي في السعودية، لكن لم يجب أحد، فاتصلت بجارة لهم كنت أعرفها، لكنها لم تجب أيضًا، وفي النهاية اتصلت بأخت حمزة (حنان) وأخبرتني بأن شركة أرامكو غيرت جميع أرقام الهواتف في المجمع بأكمله.

«ألم يخبرك حمزة؟».

أكدت لها أنه قد نسي على الأغلب، وأعطتني رقم الهاتف. فاتصلت بأطفالي، وتأكدت أن أحوالهم بخير.

وفي أحد الأيام بعد الظهر اتصلت بأمي مرة أخرى، وسألتني إن كنت رجعت أتحدث مع سام.

«لا، يا أمي، فأنت تعرفين ما فعل بي، أنا لا أريد التحدث معه، فما زلت غاضبة منه».

فقالت لي بلطف: «لقد مضى عام الآن، وأعتقد أنه حان الوقت لأن تسامحيه. ليس عليك أن ترجعي الأمور لما كانت عليه سابقًا، لكني لا أتحمل أن أراكما هكذا. أرجوك اذهبي وتحدثي معه، فهو يبحث عن شخص ليوظفه في متجره، ويريد شخصًا يعرف استخدام الحاسوب؛ ليساعده، وأنت يمكنك فعل هذا. سيتصل أخوك محمود بك من إيطاليا غدًا فكري في الموضوع».

«لست متأكدة».

وفي اليوم المقبل اتصل بي محمود.

«فدوى يحتاج هشام مساعدة في متجره، وأنا أعلم أنك تعرفين استخدام الحواسيب، فما رأيك أن تذهبي لتعملي عنده؟ يمكنني أن أتصل به من أجلك لأخفف التوتر بينكما».

آخر شيء كنت أريده هو أن أعمل لدى سام، بعد أن أهانني، وتركني مشردة. لكني كنت في حاجة إلى عمل، ولأنه سيدفع لي. لم أخبر عائلتي بأنني تركت عملي، وأحتاج إلى المال، فلم أستطع أن أخبرهم كم أعاني، وإلا فسوف يلحون عليّ بأن أرجع للأردن، كنت أعرف أنني إذا رجعت فسوف أحظى ببيت مريح والكثير من الطعام في بيت والدي، لكن لن يكون لي مستقبل أبدًا، ولن أفعل شيئًا إلا مشاهدة الأيام تمر واحدًا تلو الآخر دون أطفال، ولا زوج، ولا عمل. لكن إذا استطعت إيجاد طريقة لأتدبر أمري في نيويورك فسوف أنهي كليتي، وأتمكن من الحصول على عمل أفضل.

«حسنًا، سأتصل بسام، وسوف أعاود الاتصال بك غدًا لأخبرك ما قال».

وفي اليوم المقبل اتصل محمود على هاتف منزلي، فقد فصلت هاتفي الجوال؛ لأوفر المال.

«لقد اتصلت بسام يا فدوى، وأخبرني بأن بإمكانك الرجوع للعمل في متجره. وسوف يدفع بدل وقتك».

«هل قال: كم سيدفع؟».

«لا، لم أسأله عن هذا، لكن يمكنك أن تناقشي هذا الأمر معه بنفسك».

حان الوقت لأتنازل عن كبريائي، وأتصل بسام، شعرت بالإهانة بمجرد التفكير في رؤيته هو وسامية مجددًا بعد أن مضى عام كامل.

«مرحبًا، سام؟».

«فدوى، كيف حالك؟ أخبرني محمود بأنك ربما ترغبين في المجيء والعمل في المتجر معنا. إن أردت المجيء فسوف أدفع لك سبعة دولارات في الساعة».

لم يُثر موضوع شجارنا الرهيب أو يعترف بأننا لم نتحدث منذ عام كامل، فقد بدا الأمر كأنني رأيته منذ أيام عدة، ولم يحدث أي شيء بيننا، اتفقنا على جدول مواعيد لأساعده هو

وسـامية دون أن يتعارض ذلك مع مواعيد كليتي، وهذا كل ما حصـل. أصـبحت أعمل عند أخي مرة أخرى لكن مقابل راتب فعلي هذه المرة، لكني علمت فيما بعد أن الموظف الآخر الذي وظفه سـام وسامية في متجرهما كان يتقاضـى ثمانية دولارات في الساعة، لكن لم يكن بمقدوري أن أجادل في الأمر. لذلك قررت أن أتحمل هذا حتى أصبح قادرة إلى الانتقال لعمل آخر.

أردت أيضًـا أن أدخر بعض المال لأسـافر للأردن خلال الصيف؛ حتى أتمكن من زيارة أطفالي، فقد مضى إلى الآن ثلاث سنين منذ أن أعطيتهم حمزة، ولم أرَهم خلال هذه المدة. كانت اتفاقية الوصـاية تنص على أن يحضـرهم حمزة كل عام ليزوروني، لكن بعد أن مضـى أول عام اتصـل بي محاميّ ليخبرني بأن العقد الأصـلي قد انتهى مفعوله. لم أكن موجودة في البلـد لأعارض ذلك، ولم يكن لدي المال لأرجع أو أدفع للمحامي ليذهب الى المحكمة، لذلك لم يكن لدي خيار إلا أن أقبل. لكن على الرغم من ذلك كنت متأكدة أنه إذا اسـتطعت الرجوع للأردن شهرًا أو شهرين، فيمكنني عندئذ إقناع حمزة بأن يحضر الأطفال لأراهم.

وهكذا أصـبحت أذهب الى متجر سـام كل يوم، وكنت كلما يقول لي سـام وسـامية شيئًا يغضـبني أتخيل أنني أعانق أطفالي، وأذكر نفسـي بأنني أتحمل كل هذا من أجلهم، ولكي أرى وجوههم في غرفة المعيشة، وليس فقط في الصور.

وبعد أشـهر عدة من عملي عند سـام ذهبت للعمل في صـباح يـوم الأحد، لكني وجدت المتجر مغلقًا، كانت سـامية وبعض الأشـخاص الآخرين يقفون في الخارج وينتظروني، وقالت لي سامية:

«أغلقنا المتجر هذا اليوم، وسنذهب جميعنا في نزهة، هل ترغبين في أن تأتي معنا؟».

«لماذا لم يخبرني أحد بهذا؟ لقد قطعت كل هذه المسافة لأصل إلى عملي اليوم، لكنكم لن تفتحوا المتجر أيضًا».

«أرجوك تعالي معنا يا فدوى، سوف نستمتع بوقتنا!».

أضـافت (أحلام) صديقة سـامية، قائلة: «سـأكون المرأة العزبة الوحيدة هناك إن لم تذهبي! فمع من سأتحدث؟».

وافقت في النهاية على أن أذهب معهم، استصعبت التحدث مع أخي كأن شيئًا لم يحدث، لكنـي تمكنـت من إكمال اليوم على خير. وطلبت لاحقًا من سـام أن ينزلني عند مترو الأنفاق، فلم أرد أن يعرف أين أعيش، ولن أسـمح له بأن يصـدر أحكامًا علـيّ، ويعتقد أنني غير قادرة على الاعتناء بنفسي.

وفي الأسبوع المقبل أخذت شيك راتبي، لكني لاحظت أن المبلغ أقل من المتوقع، وعندما سألت سام عن ذلك أجابني، قائلًا:

«ذهبنا يوم السـبت في نزهة يا فدوى، هل توقعـت أن أدفع لك بدل ذاك اليوم؟! أنت لم تنجزي أي عمل!».

«لكنـك أنت من قـرر أن يغلق المتجر، وليس أنا! لقد اتفقنـا على جدول المواعيد، وأنت لم تخبرني بأنك سـتغلق المتجر في ذلك الوقت، وقطعت مسافة طويلة من برونكس لأصل إلى المتجر».

اعتقد سـام بلا ريب أن كلامي غير منطقي، لم أخبره كم كان من الصـعب عليّ أن أدفع إيجار منزلي كل شهر، وكيف من المستحيل أن أعوض خسارة، ولو أجرة يوم واحد،لم أستطع أن أخبره بذلك؛ لأنني كنت خائفة من أن يشعره ذلك بالرضا عن معاناتي، ويعتقد أنني أحتاج إليه، حتى أعيش.

بعد حديثنا هذا شـعرت بالحرج أن أعود لعملي فـي المتجر، وقررت ألا أذهب للعمل في اليوم المقبل، لكن لم أتصـل بسـام لأخبره، فهو سيعرف السبب عما قريب في الحقيقة، عرفا السبب بسرعة كبيرة، فقد اتصلت بي سامية لاحقًا في ذلك اليوم، وقالت لي:

«هل أنت بخير يا فدوى؟ لقد افتقدناك في العمل اليوم».

«أنا مشغولة بعملي الآخر، وليس لدي وقت لأعمل في المتجر بعد الآن».

«هـل أنت غاضـبة لأننا لم ندفـع لك أجرة يوم الأحد؟ لا تقلقي، سـوف أتحدث لسـام، وسندفع لك».

«لا داعي أن تتعبي نفسـي في هذا الأمر، فأنا لن أرجع. وسـأعود للأردن عما قريب لأرى أطفالي».

بعد أن شعرت سامية بأنني لن أتراجع عن قراري استسلمت بصمت. وفي شهر تموز رجعت بالطائرة للأردن في رحلة دامت ست عشرة ساعة، ثم ذهبت متوجهة لمنزلي في سيارة أجرة؛ حتى لا أضطر بعد لمواجهة أفراد عائلتي الغاضبين مني، وقد دهشت عندما اكتشفت أن حمزة قد هدم منزلنا وبنى مكانه عمارة مقسمة ثماني شقق، لم يتناسب مفتاح منزلنا القديم مع القفل، لذلك طرقت بضعة أبواب إلى أن أجابني أحد إخوان حمزة وأعطاني مفتاحًا. فاستقررت في شقة غير مسكونة في الطابق الأرضي، واكتشفت أن كثيرًا من أدوات مطبخي القديم وأوانيه قد اختفت، أو أخذت إلى أماكن مختلفة.

وبعد أن وضعت بعض الأشياء في أماكنها اتصلت بيوسف على هاتفه الجوال لأعلم أطفالي أنني رجعت للأردن، كان أطفالي ذاهبين في زيارة عند جديهما في فلسطين، ويمكنهم أن يأتوا لرؤيتي بعد انتهاء هذه الزيارة.

وفي صباح اليوم المقبل عند الساعة ١١:٠٠ صباحًا ذهبت لزيارة عائلتي، في البداية كانت أمي وأختي الكبيرة نعمة هما الوحيدتين اللتين تحدثتا معي. كانت نعمة فاترة الشعور نحوي قليلًا إلى أن أخبرتها بأنني لم أختر مغادرة منزل سام، وأنه هو من طردني، فقالت لي:

«ماذا؟ لكن أمي أخبرت الجميع بأنك غادرت لتعيشي وحدك، عليك أن تخبري أبي!».

كنت مترددة قليلًا؛ لأني لم أرد أن أثير المزيد من المشكلات.

«لا، يا فدوى، عليك أن تخبريه، فالجميع في العائلة يعرفون الأمر، وهم غاضبون منك بلا سبب، عليهم أن يعرفوا الحقيقة».

وبعد الكثير من الإقناع ذهبت في النهاية لأتحدث مع أبي، وعندما رايته قبّلت يده وجبينه كان يومئ برأسه، بينما أخبره ماذا حدث بيني وبين سام، ثم سألني عن أطفالي وكيف أحوال عملي، فقد كان هذا هو أسلوبه ليلمح لي بأن الأمور عادت لمجاريها بيننا، لكنه لم يذكر أيًّا من هذا الأمر إلى سام؛ لأنه ابنه البكر. وبعد ذلك أمضيت الليلة مع والديّ، وأخبرت أمي ونعمة بأن تتصل بسميرة لتأتي إلى منزل والديّ، فبقيت أختاي وأطفالهما طوال الليل معي في منزل والديّ، وفي اليوم المقبل عدت إللا منزلي، وأخبرت والدي بأنني سآتي لزيارتهما مرة أخرى.

انتظرت شهرًا كاملًا، وكنت كل يوم أتحدث مع أطفالي على الهاتف، وأسألهم متى سيأتون لرؤيتي. كان يوسف وأنس يرجوان أباهم كل يوم ليسمح لهم بأن يذهبوا إلى الأردن ليروني.

مرّ شـهران، ولم أَرَ أطفالي بعد، تشـاجر يوسـف وأنس مع أبيهما، وطالبا منه أن يسمح لهما برؤيتي، وفي النهاية سمح لهما. كان عمهم (حسن) يستعد للسفر للأردن، لذلك أخذهما معه، ثم اتصل بي يوسف من الحدود الإسرائيلية ليعلمني بأنهما قادمان، لكني لم أكن مستعدة لما أخبراني، فقد كنت متأكدة أنني سأرى جميع أطفالي.

«أنـا وأنس قادمان لرؤيتك يا أمي، لكن لن يأتي إخوتي الآخرون؛ لأن أبي لم يسـمح لهم بذلك».

«ماذا؟ ألن يأتي أخوك وأختاك معكما؟ ارجعا إذن إن لم يأتِ جميعكم، فلا أريد أن أرى أحدًا منكما».

«لكنا كدنا نصل يا أمي!».

تجاهلا اعتراضاتي المليئة بالألم، وبعد ثلاثين دقيقة قُرع الباب.

وفور رؤيتي ولديّ بدأت بالبكاء، فقد كبرا كثيرًا منذ يوم تركا قبعتيهما عندي في المنزل، وركضا للخارج ليذهبا ويعيشا مع أبيهما. ثم أسرعا نحوي وقبلا يدي، فعانقتهما، قائلة:

«يوسف، أنس، ألم يحضركما عمكما؟ أين هو الآن؟».

«لقد غادر، فلم يرغب في أن يتحدث معك؛ لأنه يعتقد أنك غاضبة منه».

«أنا لسـت غاضبة من حسـن الأمر بيني وبين أبيك، وليس له علاقة بالموضوع، لماذا لا تتصل به، وتدعوه إلى الغداء؟».

بقي يوسـف وأنس معي أسـبوعًا، أخذتهما خلاله ليريا عائلتي. لكن سـرعان ما اتصـل حمـزة، وأخبرهما بأن يحزما أمتعتهما، ويرجعا إلى السـعودية، أخبرني يوسـف فيما بعد بأن حمزة أخبر روان وسارة وعبود بأنهم سيذهبون إلى الأردن ليروني، لكنه لم يحضرهم لرؤيتي على الرغم من أنه عبر الأردن ليرجع إلى السعودية من فلسطين. انتظرت إلى أن غادر يوسف وأنس، ثم بدأت أبكي، فأنا لم أرغب في إفساد المدة القصيرة التي بقيا فيها معي، وأنا لا أعلم متى سأراهما ثانية.

قررت أن أزور عائلتي قبل أن أرجع الى نيويورك.

وبعد ذلك ذهبت مع نعمة لتناول طعام الغداء مع ابن عمنا زياد، الذي اعتاد أن يأتي ليزورني مع مروان في مكان عملي قبل أن أتزوج حمزة، ثم أخبرته بقصتي، التي سرعان ما انتشرت بين جميع أولاد وبنات عمي وعماتي وأعمامي وأولاد وبنات إخواني وأخواتي. غضب زياد عندما سمع القصة، وقال لي:

«لو كنت مكانك لما رجعت أبدًا! ابقي في نيويورك، وابني حياتك هناك لا تقلقي من سام، واستمري في الذهاب إلى الكلية، فسوف تحصلين على عمل، وفي أحد الأيام سيرجع أولادك إليك، فهم يعرفون أنك تحبينهم».

شكرته، ورجعت لأودع والديّ، فقد أصبحنا في بداية شهر آب، وحان وقت رجوعي للكلية.

وبعد أن عدت إلى نيويورك كان علي أن أبدأ مدة التدريب بوصفي مساعدة طبية. أخبرني أستاذي، الذي نسميه الدكتور (A)، أنه سيبحث عن مكان أتدرب فيه، لكن يمكنني أيضًا أن أسأل أحدهم إن كنت أعرف طبيبًا أرتاح بالعمل معه.

كانت هناك عيادة صغيرة أمام شقتي على الجهة المقابلة من الشارع، حيث كانت تعمل امرأة إيطالية اسمها الدكتورة (إيوا). كنت قد ذهبت إلى تلك العيادة مرات عدة لأجري فحوصًا طبية، وعقدت صداقة مع الطبيبة. فسألتها إن كان من الممكن أن أتدرب عندها؟، فاستشارت مالك العيادة، ثم أكدت لي أنه يمكنني العمل في العيادة.

وفي الوقت نفسه وجد الدكتور (A) عيادة يعمل فيها طبيب إيراني يهودي. اعتقد الدكتور (A) أنني سأشعر براحة أكبر في ارتداء حجابي في عيادة ذلك الطبيب؛ لأنه من الشرق الأوسط، ولو كان غير مسلم.

وعندما استقر كل شيء انتهى بي المطاف بالتدرب في كلتا العيادتين، يومان في واحدة وثلاثة أيام في الأخرى. شعرت بالخوف في البداية من فعل أي شيء، ووقفت بالقرب من الحائط أتفرج على الممرضات ومساعدين طبيين آخرين يسيرون ذهابًا وإيابًا. ولأنني كنت مرعوبة من ارتكاب خطأ، نسيت كل المعلومات التي تعلمتها في حصصي الدراسية.

وبعد بضعة أيام عرضت علي إحدى الممرضات أن تريني كيف أستخدم جهاز تخطيط كهربية القلب، وقالت لي:

«لا تخافي. ما عليك إلا أن توصلي الأقطاب بجسم المريضة هكذا، ثم سيرسم الجهاز مخططًا لدقات قلبها، وأول جزء من دقات القلب هو موجة (P) ثم مركب (QRS) وموجة (T). وهذا هو شكل مخطط دقات القلب الطبيعية».

تنقلت في مناطق مختلفة في العيادة، وتعلمت أمورًا حول مكتب الاستقبال والتأمين الصحي وحفظ الملفات. وتعلمت في عيادة الدكتورة (إيوا) كيف آخذ عينات دم، وأعطي اللقاحات وحقن الإنفلونزا.

كان الأطباء كل أسبوع يوقعون لي على نماذج الكلية؛ لتثبت أنني أنهي ساعات التدريب. لم يكن لدي وقت لأعمل لقاء راتب باستثناء حصص اللغة العربية الخاصة التي كنت أعطيها من حين لآخر في منطقة بروكلين ومانهاتن في نهاية عطله الأسبوع؛ لذلك كان علي أن أعيش على المساعدات الاجتماعية وكوبونات الطعام التي قدمت إليها بعد أن أخبرتني عنها صديقتي هلينا، وكانت صديقتي سميرة تجلب من حين لآخر طعامًا لشقتي لتساعدني. وحتى في أثناء قضاء مدة تدريبي استمررت بالبحث عن وظيفة، لم تكن هناك وظائف متاحة في عيادة الدكتورة (إيوا) ولم تتمكن من إيجاد أي وظائف شاغرة بعد أن أجرت بعض الاتصالات مع أصدقائها.

وفي أحد الأيام توقفت عند متجر بقالة لأحصل على فكّة أستخدمها في محل غسيل الثياب الذي يقع في الحي الذي أعيش فيه، وهناك التقيت مصادفة الدكتورة إيوا، التي أمسكت ذراعي، وقالت لي:

«أنا سعيدة برؤيتك يا فدوى! أريد منك أن تأتي للعيادة معي؛ لتساعديني على علاج أحد المرضى، هل لديك وقت؟».

نعم، بلا ريب، سوف أساعدك».

فذهبت للعيادة، وساعدت الدكتورة إيوا في أخذ عينة دم من المريض، فشكرتني على مساعدتي، وأخبرتني بأنها تتمنى أن تقدم لي عملًا بدوام منتظم.

وفي شهر أيار من عام ٢٠٠٥م تخرجت، وحصلت على درجة الزمالة، وبدأت أتقدم للحصول على عمل بوصفي مساعدة طبية. حاولت أن أجد مكانًا أشعر فيه بالراحة، وأنا أرتدي حجابي، ولم تمضِ مدة طويلة بعد أن أنهيت ساعات تدريبي حتى أغلقت عيادة الدكتورة إيوا

في منطقة كوينز. كان لديها عيادة أخرى في منطقة بروكلين، لكن لم تتوافر مناصب شاغرة هناك أيضًا، لذلك كان عليّ البحث في مكان آخر.

وفي غضون ذلك بدأت أذهب إلى عيادة طبيبة نسائية في منطقة كوينز. كانت هذه الطبيبة باكستانية، لذلك شعرت بالراحة في التحدث معها حول أمور شخصية. ذهبت لعيادتها لأجري فحصًا طبيًّا، وسألتني أي نوع من المنتجات أضع على بشرتي، فدار بيننا حديث طويل حول الأعشاب التي أخلطها مع بعضها بنفسي، وأستخدمها منظفًا للوجه، وأيضًا حول كتاب التداوي بالأعشاب الذي ألفته، عندما كنت أعيش في السعودية.

«أتعلمين يا فدوى، أعرف طبيب عائلة اسمه الدكتور مجدي. إنه رجل مصري ينشر مجلة حول مختلف الموضوعات الطبية كل أسبوعين، إنها مجلة باللغة العربية، وهو يضعها في عيادات الأطباء ومتاجر البقالة العربية ليوزعها على الناس مجانًا، أنا متأكدة أنه سيرغب في أن يلتقيك. فما رأيك؟».

«بلا شك».

«هل يمكنني أن أعطيه رقمك ليتصل بك؟».

«نعم».

تحدثنا قليلًا بعد ذلك، وطلبت مني أن أساعدها على تسريح شعرها ومكياجها عندما يحين عرسها بعد أسبوعين، ثم عانقتها وودعتها.

وبعد بضعة أيام قابلت الدكتور مجدي.

«إذن أنت خبيرة أعشاب؟ يسعدني أن ألتقيك هل أنت مهتمة بكتابة مقال لمجلتي؟ نحن لا نستطيع أن ندفع لك، لكن إن اجتذبت جمهورًا فسيفتح ذلك لك هذا أبوابًا كثيرة. يمكنني في وقت الغداء أن آخذك إلى دار النشر إن أحببت».

وافقت أن أذهب معه، وبعد بضع ساعات وجدت نفسي أنظر إلى كثير من الإصدارات السابقة لمجلة الدكتور مجدي، كان هناك رجل عراقي يعمل لدى الدكتور مجدي في تصميم المجلة وطباعتها، وعندما أخبرته بأنه يمكنني أن أكتب مقالًا لهم عرض عليّ أن أطبعه في المكتب؛ حتى أتمكن من استخدام برامجهم العربية.

علـى مـدى الأسـابيع القليلة المقبلـة انتهى بي المطاف بنشـر ثلاثة مقـالات في مجلة الدكتور مجدي. وعندما بدأ الناس بقراءة مقالاتي تسـلّم الدكتور مجدي مكالمات هاتفية من أشخاص يطلبون أن آتي لأرى أطفالهم، وأقدم نصائح علاجية. تحدثت مع امرأة سورية لديها ابنة تجلس على كرسـي للمقعدين منذ أن كانت طفلة صغيرة، وبدأت تعاني مشكلات في النوم والذاكرة، وأرادت أن أحضر لها وصفة أعشاب لأساعد ابنتها. وبعد أن أفهمتها أنني لا أستطيع أن أجعل ابنتها تمشـي مجددًا وافقت على أن أذهب لمنزلها لأريها كيف تخلط بعض الأعشاب لتساعد ابنتها على النوم.

ذهبـت إلى متجـر البقالـة العربي، واختـرت بعناية الأعشـاب، ثم طحنتهـا مع بعض، وسـكبتها في كيس تغليف بلاسـتيكي، وذهبت بهـا إلى منزل المرأة السـورية، ثم ركبت مترو الأنفاق من برونكس ثم كثيرًا من القطارات إلى بروكلين حتى وصلت إلى منزلها.

«إنـه لطف منـك أن تأتي إلى هنا يا أخـت فدوى، هل لديك مكتب؟ هـل تقبلين التأمين الصحي؟».

«يومًا ما إن شاء الله».

ذهبت المرأة إلى المطبخ لتحضـر بعض الشـاي لي، أدركت ببطء أن ليس لديها المال لتدفع لي، فشـربت الشاي معها برهة، وأنا آمل أن تثير موضوع الدفع، لكنها لم تفعل. فجلست صامتة، ثم ابتسمت لها، وأخبرتها في النهاية بأن تأخذ الأعشاب هدية، فقد خطر لي أن أعتبر هذا خسارة، وألا أعود ثانية.

ولاحقًا عندما أخبرت الدكتور مجدي بما حدث هز رأسه قائلًا:

«يجب ألا تدعي الناس يستغلونك هكذا يا فدوى، عليك أن تخبريهم كم كلفك شراء هذه الأعشاب وتجعليهم يدفعون ثمن وقتك وتعبك».

علـى الرغم من أن تجارة الأعشـاب لم تنجـح، ولم تدر مقالاتي أي مبلـغ، لكن نتج عن علاقتي بالدكتور مجدي حصـولي على أول وظيفة مسـاعدة طبية، فقد كنت قد أخبرته بأنني أبحث عن عمل، وطلب مني أن أترك نسـخة من سـيرتي الذاتية عنده، وبعد بضـعة أيام طلب مني أن ألتقيه في مكتبه، ثم عرض علي وظيفة عنده. لم يستطع أن يدفع لي الكثير؛ لأن خبرتي مازالت قليلة، فلم يدفع لي إلا ستة دولارات في الساعة، لكن كان هذا مجرد بداية. بدأت أفكر

في إمكانية إكمال دراستي لأحصل على درجة البكالوريوس في الطب، لكن الدكتور مجدي أخبرني بأنه يجب عليّ أن أحضر للعمل في المساء وفي عطل نهاية الأسبوع من حين لآخر.

«لماذا لا تعملين مدة وتدخرين بعض المال يا فدوى؟ بعدها يمكنك أن تفكري في الرجوع للدراسة».

وهكذا قبلت الوظيفة، وأجلت خططي الدراسية.

كان لدى الدكتور مجدي شريك وممرضة، وكان ثلاثتهم من الجنسية المصرية. إضافة إلى طالبة تمريض هندية، كان المصريون الثلاثة يحبون أن يبقوا مع بعضهم، لذلك كان علي أنا والمرأة الهندية أن نساعد بعضنا. وكانت (فاتن) الممرضة المصرية تشتكي دائمًا علينا، وتخبر الدكتور مجدي بأننا لا نعرف كيف ننجز عملنا، فكانت تقول له:

«إن فدوى يا دكتور مجدي، لا تعرف شيئًا عن اللقاحات، أعتقد أنني أحتاج إلى وقت أطول لأعلمها، لكني لا أمانع في أن أعتني بالمرضى الإضافيين حاليًّا».

كانت قد عملت في العيادة ست أو سبع سنوات تقريبًا، وكانت تعتقد أن لا أحد غيرها يستطيع أن ينجز الأشياء التي تنجزها.

بدأت ببطء أحصل على خبرة أكبر، وأوكل الدكتور مجدي مهامّ أكثر لي. فقد جعلني أدرب متدربة جديدة، وأعلن بفخر أنني جاهزة لتسيير أمور العيادة. لكني سرعان ما اكتشفت أنه كان يعني أن فاتن تريد أن تعطل أيامًا كثيرة، لذلك كان علي أن أنجز عملي وعملها في أيام عطلتها، فقد كان عليّ أن أنفذ فحوص مخطط كهربية القلب، وأكتب ملاحظات مفصلة عن جميع المرضى الذين يحضرون إلى العيادة، وأسحب منهم عينات دم، وأعطي الأطفال اللقاحات، وأجيب على الهاتف، وأتحقق من صلاحية التأمين الصحي للمرضى،... إلخ. لذلك كنت أصاب بالإعياء في نهاية كل يوم، لكني أجبرت نفسي على الاستمرار حتى أكتسب الخبرة.

وفي أحد الأيام التقيت مصادفة نساء لبنانيات تعرفت إليهن، بينما كنت أعمل لدى سام. كان لديهن صديقة تدعى (روماندا) تعمل مصممة أزياء، وأردن أن يعرفنني بها، فذهبت إلى متجرها في (مانهاتن - نيويورك) وجلست لأشرب الشاي معها. ترعرعت روماندا بوصفها مسلمة، لكنها اعتنقت الدين المسيحي. بدأت أراها مرة في الأسبوع؛ لأساعدها على تعلم الكمبيوتر، كما طلبت مني دون مقابل. وفي يوم من الأيام قالت لي:

«أتعلمين يا فدوى، كانت تلك لحظة مهمة في حياتي، عندما أصبحت مسيحية، أصبحت حياتي مختلفة كثيرًا. هل فكرت يومًا في اعتناق المسيحية؟».

«أوه، لا يمكنني فعل ذلك، فأنا أحب ديني».

غيرت الموضوع، وأخبرتها عن معاناتي في العثور على عمل.

قالت روماندا: «أريد أن أعرفك إلى صديقة لي يا فدوى. ستأتي بعد نصف ساعة».

وافقت على ذلك.

ثم بدأت روماندا تخبرني عن صديقتها التي تعمل في الجيش الأمريكي.

ابتسمت، وقلت لها: «أنت تذكرينني يا رومادنا، بالجيش الأمريكي». ثم سرعان ما أخبرتها بما حدث لي مع الرقيب باريرا، فقالت لي:

«عليك أن ترجعي للرقيب باريرا، وتنضمي للجيش هذه المرة، فأنت تكافحين كثيرًا سوف يدفعون لك جيدًا، وسيعطونك مكافآت أيضًا».

«لكنهم يريدوني أن أنزع حجابي».

«وماذا في ذلك؟ انزعيه».

«لكن هذا صعب علي، فأنا أرتديه منذ كان عمري عشر سنوات. كيف يمكنني أن أخرج على الملأ، ويراني الغرباء دون حجاب؟».

فكرت في الموضوع، عندما رجعت إلى المنزل، كنت قد تعبت من التنقل بين تلك الشقق الصغيرة الموبوءة بالجرذان ومن افتقاري إلى المال. ثم اتصلت بي روماندا مجددًا، وشجعتني على أن أفكر بجدية في الانضمام للجيش. كانت لحوحة قليلًا، لكن ربما تكون وجهة نظرها منطقية. ففي حال قررت أن أنزع حجابي سوف أنضم للجيش، وسأحصل على دخل ثابت، وهو شيء لم أحظَ به من قبل أن أتزوج حمزة.

اتصلت بالرقيب باريرا، وقلت له:

«مرحبًا يا رقيب. هل تتذكرني».

«فدوى! نعم، بالطبع أتذكرك».

وقد كان بداية عام ٢٠٠٦م عندما قررت أن أنضم إلى الجيش مرة أخرى. فحددت تاريخ ووقت الالتقاء بالرقيب (باريرا) في مكتبه في (نيوجيرسي). وأخبرت الدكتور مجدي بأن لدي موعدًا مع الطبيب، فليس من الضروري أن يعرف أحد بخططي الجديدة حتى أتيقن من كل شيء.

دَعِ الأَيَّامَ تَفْعَل مَا تَشَاءُ وطب نفساً إذا حكمَ القضاءُ
وَلا تَجْزَعْ لنازلة الليالي فما لحوادثِ الدنيا بقاءُ
وَرِزْقُكَ لَيْسَ يُنْقِصُهُ التَأني وليسَ يزيدُ في الرزقِ العناءُ